فلسفة الحب عند ابن حزم

قد يعجب القارئ حين يرانا ندخل ابن حزم فى عداد فلاسفة الحب ، ولكنه لو قرأ بعين الاعتبار رسالة ابن حزم فى الألفة والألاف ، لما تردد فى إدراج تلك الرسالة ضمن المحاولات المبكرة فى فلسفة الحب . ولئن كان ابن حزم قد تناول موضوع الحب من وجهة نظر الأديب ، والشاعر ، والمؤرخ ، أكثر مما تناوله من وجهة نظر الفيلسوف ، والمحلل ، والباحث النفسانى ، إلا أن من المؤكد مع ذلك أننا نلتقى فى تضاعيف دراسته للحب بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة ، والآراء الفلسفية العميقة . ولسنا نريد ــ فى هذه العجالة القصيرة ــ أن نضع بين يدى القارئ خلاصة وافية لرسالة ابن حزم فى الحب ، وإنما حسبنا أن نبرز الجوانب الطريفة والأفكار الأصيلة فيما كتبه هذا المفكر العربى الكبير عن تلك العاطفة الإنسانية النبيلة . وربما كانت أول ملاحظة تعن للباحث عند مطالعته لرسالة ابن حزم فى الحب ، هى هذا التسلسل المنطقى فى العرض ، وذلك الترتيب المنهجى فى تناول الموضوع ، بعكس ما درج عليه الكتاب العربى من استطراد واسترسال وإطناب . فابن حزم يبدأ حديثه بالكلام فى ماهية الحب ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن نشأة الحب ، فيستقصى علاماته ومظاهره ، ويستعرض أنواعه ونماذجه ، ثم يتتبع أحوال المحبين وعوارض حبهم ، فيحدثنا عن الوصل والهجر ، والوفاء والغدر ، والبين والضنى ، والسلو والموت . إلخ . وأخيرا يحدثنا ابن حزم عن صلة الحب بالشهوة ، ويعرج على موضوع الطهر والتعفف ، لكى ينتهى إلى القول بأنه لم يحدثنا عن الحب بلغة الشعراء الحالمين ، بل هو قد اقتصر فى رسالته على الحقائق الواقعية التى لا يمكن وجود سواها أصلا(١) .

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٣ .

والظاهر أن الكثيرين من معاصرى ابن حزم قد عابوا عليه — وهو الإمام الفقيه المتكلم — التعرض لدراسة موضوع كالحب ، فلم يجد ابن حزم بدا من الاعتذار عن ذلك فى مقدمة رسالته ، ولسان حاله يقول : إنه حتى لو كان الحديث عن الحب أدخل فى باب الباطل منه فى باب الحق ، فقد قال أبو الدرداء : « أجموا النفوس بشىء من الباطل ، ليكون عونا لها على الحق » ، كما ورد فى بعض الأثر : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد(١) » . وإذا كان أول الحب هزلا ، فإن آخره جد . وابن حزم يسجل فى صدر كتابه جلال الحب وقداسته ، فيقول : « .. دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل(٢) » . وواضح من هذا النص أن ابن حزم كان يخشى أن يقع فى ظن البعض أن الحديث عن الحب هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة ، فهو أحرص ما يكون على إبراز قدسية تلك العاطفة خصوصا وقد أحب من بين الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيرون ! ولكن ابن حزم حريص فى الوقت نفسه على تنبيهنا إلى أن الحب خبرة معاشة ، فلا يدرك حقيقته إلا من كابده ، وبالتالى فإن ابن حزم يستند فى حديثه عن الحب إلى تجربته الخاصة .

والحق أن مفكرنا الأندلسى الكبير لم يكن يجد أدنى حرج فى الإشارة — بين الحين والآخر — إلى بعض ما مر به من خبرات فى هذا الصدد ، فهو لا يستند فى أحكامه إلى آراء نظرية خالصة ، أو نظريات فلسفية معروفة ، بل هو يستمد أحكامه من تجاربه وتجارب الآخرين ، دون التعرض لذكر أسماء أصحابها ، اللهم إلا من لم يكن هناك ضرر من تسميته . وهو يصرف النظر عن أخبار الأعراب والمتقدمين ، لاعتقاده بأن أساليبهم فى الحياة والحب قد كانت مختلفة تماما عن أساليب أهل عصره ، ولاقتناعه فى الوقت نفسه بأنه لا بد له من أن يأتى بجديد ، بدلا من أن يقتصر على ترديد أحاديث السابقين(٣) .

بيد أننا نلاحظ أن تعريف ابن حزم للحب لا يخلو من تأثر بالنظرية الأفلاطونية

---

(١) المرجع السابق : ص ٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥ .

(٣) ابن حزم : « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » ، ١٩٦٤ ، ص ٣ .

المعروفة فى الحب ، فإننا نراه يقول : « وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع » . ولا شك أن هذا التعريف يذكرنا بحديث أفلاطون المشهور عن « الإيروس » فى محاورة « المأدبة » ، خصوصا وأن ابن حزم يستطرد بعد ذلك فيقول إن المحبة « استحسان روحانى وامتزاج نفسانى » . ولكن ابن حزم لا ينص على الأصل اليونانى لهذه النظرية ، بل هو يحاول ردها إلى الآية الكريمة التى تقول : ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ليسكن إليها﴾ . وحجة ابن حزم هنا أنه لو كانت علة الحب هى جمال المحبوب ، أو حسن الصورة الجسدية ، لما كان المحرومون من الجمال أو ناقصو الصورة موضعا لحب ، فى حين أن التجربة شاهدة على أن كثيرا من المحبين قد يتعلقون بالأدنى ، وهم يعلمون فضل غيره ، دون أن يجد الواحد منهم محيدا لقلبه عنه . « ولو كان للموافقة فى الأخلاق ، لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه » . فلا بد إذن من أن يكون الحب شيئا فى النفس ، وأن يكون سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال .

حقا إن المحبة على أنواع : فهناك محبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة لطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء لِوَطَر ، ومحبة المتحابين فى الله عز وجل (إما لاجتهاد فى العمل ، وإما لاتفاق فى أصل النحلة والمذهب ، وإما لفضل علم يمنحه لإنسان) ، وأخيرا محبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . ولكن من المؤكد أنه إذا كانت المحبة لسبب من الأسباب ، فإنها لا بد من أن تفنى بفناء هذا السبب : « فمن ودك لأمر ولى مع انقضائه » . وأما محبة العشق فإنها محبة خالصة ، تنفذ إلى أعماق النفس فتتمكن منها ، ومن هنا فإنه لا فناء لهذه المحبة إلا بالموت ! وكما أنك قد ترى شخصين يتباغضان بدون سبب ، ويكره أحدهما الآخر دون علة ، ويستثقل الواحد منهما الآخر بلا مبرر ، فكذلك قد ترى شخصين يتحابان دون علة ظاهرة ، ويكلف الواحد منهما بالآخر لغير ما سبب ، ويأنس الواحد منهما بالآخر دون أدنى مسوغ ! ولكن لا غرابة فى ذلك : فإن الحب يزين للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده ، حتى إنك لتجد المرء حين يمسه الحب وكأنما هو قد استحال إلى مخلوق آخر ، أو كأن طبيعته قد

تغيرت تغيرا كليا شاملا(١) .

بيد أن القول بأن الحب استحسان روحانى أو امتزاج نفسانى لا يستلزم بالضرورة أن يكون قوامه التبادل ، فإن ابن حزم يقيم تفرقة واضحة بين المحب والمحبوب ، كما أنه يقرر فى الوقت نفسه أن الحب اضطرار لا اختيار .. وهو يعبر عن هذا المعنى فى مواضع متفرقة من كتابه فيقول مثلا : « وأما استحسان الحسن وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبها ... وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة ... وأما المحبة فخلقة(٢) » . ومن ذلك أيضا قوله : « .. إنى إنما أحببته لنفسى ، ولالتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى وأقود أصلى وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها ... (وأنت) إن بذلت نفسك لم يكن اختيارا ، بل كان اضطرارا ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها ... »(٣) . وكما قال أفلاطون من قبل إن إيروس هو المحب لا المحبوب ، نجد ابن حزم أيضا يلحق الحب بالمحب ، ويتكلم عن معانى الحب وأعراضه وظواهره وشتى آفاته من وجهة نظر المحب لا المحبوب . وحتى حين يتحدث ابن حزم عن الوفاء ، فإننا نجده يقيد به المحب لا المحبوب ، لأن الوفاء أوجب على المحب الذى بدأ بالمودة ، فى حين أن المحبوب مخير فى القبول أو الرفض ! والواقع أن الفارق بين المحب والمحبوب هو كالفارق بين الطالب والمطلوب أو بين الراغب والمرغوب فيه ، أو بين المغنطيس وقطعة الحديد التى تنجذب إليه . فنفس المحب قاصدة إلى نفس المحبوب ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد ، والحركة إنما تكون دائما من الأقوى . وابن حزم هنا يتلاقى مع الكاتب الفرنسى ستندال الذى سيقول من بعد إن الرجل فى الحب مهاجم ، والمرأة مدافعة ، والرجل يطلب ، والمرأة ترفض ، والرجل مخاطر جسور ، بينما المرأة متوجسة متخوفة(٤) .

ولكن ابن حزم يقرر مع ذلك أن المحبة لا تقوم مطلقا بين متنافرين أو متضادين : لأن

---

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ١٠ — ١١ .

(٢) ابن حزم : « طوق الحمامة » ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٦ .

(٤) Cf. André Mourois : " **Cinq Visages de l'Amour**", Didier, New-York, 1942, Ch. III. Les Héroines de Stendhal, p. 100.

الشكل يستدعى دائما شكله ، والمثل إلى مثله ساكن . فأنت لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق فى الصفات الطبيعية بدرجة تختلف شدة وضعفا . وكلما كثرت عناصر المشاكلة بينهما ، زادت المجانسة ، وتأكدت روح المودة . وقد قال رسول الله ﷺ : (الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) . ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه »(١) . وابن حزم يضيف إلى ذلك أن النفس بطبيعتها جميلة تولع بالجمال ، حسنة تكلف بكل شيء حسن ، فهى تنجذب بالضرورة نحو الأشكال المنسجمة والصور المتوافقة .. وهى حين تميز فى المواضع الجميلة شيئا من أشكالها ، فإنها سرعان ما تتعلق بها وتنجذب إليها « وإن لم تميز وراءها شيئا من أشكالها ، لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هوة الشهوة(٢) » .

وابن حزم يفيض فى الحديث عن علامات الحب ، فيبين لنا كيف أن العين هى باب النفس ، « وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعبرة عن كوامنها ، والمعربة عن بواطنها » ، فليس بدعا أن تكون « النظرة » هى نقطة انطلاق الحب .. والحق أنه كثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، فترى المرء يعشق صورة لا يعلم من هى ، ولا يدرى لها اسما ولا مستقرا . وابن حزم يحدثنا هنا عن الكثيرين ممن أحبوا من نظرة واحدة ، وكيف نشأت العلاقة فى نفوس هؤلاء المحبين من لمحة خاطرة ! بل قد تقع المحبة — فى رأيه — بالوصف دون المعاينة ، فيعشق المرء شخصا لم يره ، إما لأنه سمع عنه من الأخبار ما حببه إلى نفسه ، وإما لأن خياله قد صور له ذلك الشخص بصورة المعشوق الأسمى الذى لا يدانيه مخلوق كمالا وجمالا ! وابن حزم يعلم أن للخيال دورا كبيرا فى نشأة الحب ، فهو يحدثنا عن محبين شغلوا أنفسهم بغير حقيقة ، وتعلقت أوهامهم بمعدوم أو شبه معدوم ، متعجبا كيف يحب المرء « من لم يره قط ولا خلق ولا هو فى الدنيا » ! ولكنه يعود فيفسر لنا هذا النوع من الحب بقوله : « إن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير ، لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيمها نصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها(٣) .

---

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ٨ . (٢) المرجع السابق : ص ٩ .

(٣) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ٢٠ — ٢١ .

وابن حزم هنا يتلاقى مرة أخرى مع الكاتب الفرنسى الكبير ستندال الذى سيقول من بعد بفكرة « التبلور » فيروى لنا كيف أن خيال المحب يخلع على المحبوب كل ما يهواه من ضروب الكمال ، وكيف أن أوهام المحب هى التى تجىء فتضفى على شخصية المحبوب من المرايا ما يجعل منها جوهرة ثمينة نادرة(١) . وابن حزم يتفق أيضا مع ستندال فى أن عملية التبلور أسرع وأسهل لدى المرأة منها لدى الرجل ، لأن « حب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابية طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكنه منهن(٢) » ولكن الكاتب العربى الكبير يلاحظ أن « المعاينة » قد تجىء بعد ذلك فتؤكد هذا النوع من الحب ، وتزيد من قوته ، أو تبطله تماما ، وتقضى عليه بالكلية ! وهو يروى لنا — فى هذا الصدد — الكثير من الأخبار التى سمع عنها ، ويسرد علينا بعضا مما شاهده بعينى رأسه ، لكى لا يلبث أن يصدر على هذا النوع من الحب حكم الفيلسوف العاقل المتبصر فيقول : « إن من أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومخبر بسرعة السلو ... وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نموا أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفادا(٣) » .

وكما حدثنا ابن حزم عن الحب الذى ينشأ عن الخيال والوصف ، والحب الذى ينشأ من نظرة واحدة ، نجده يحدثنا أيضا عن الحب الذى يتكون ببطء ، تحت عنوان : « باب من لا يحب إلا مع المطاولة » . وابن حزم هنا يكشف عن عقلية سيكولوجية ممتازة : لأنه يربط الحب بالزمان ، ويقيم العاطفة على تعدد التجارب وارتباطها بموضوع واحد ، فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسى دورا هاما فى تأصل عاطفة الحب ودوامها ، وكيف أن « ما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا(٤) » والظاهر أن خبرة ابن حزم الخاصة قد دلته على أن العشق السريع هو أقرب إلى الشهوة منه إلى الحب ، فى حين أن

---

(١) Cf. A. Maurois : " **Cinq Visages de l'Amour.**", 1942, p. 98.

(وانظر أيضا مقال الدكتور طه حسين المنشور بمجلة « الكاتب المصرى » ، المجلد الثانى ، العدد الخامس ، فبراير سنة ١٩٦٤) .

(٢) « طوق الحمامة » ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٣ — ٢٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٤ .

العاطفة البطيئة التى تتكون على مر الأيام والليالى لا بد من أن تدوم وتثبت على العكس من الشهوة العابرة أو المغامرة الغرامية الخاطفة . وهو يقول فى ذلك بصريح العبارة : « وإنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة . وأما أن يكون فى ظنى متمكنا من صميم الفؤاد ، نافذا فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهرا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والتوقى ، فما نسيت ودا لى قط(١) .

ولما كان ابن حزم قد ربط الحب بالاستقرار النفسى ، كما أقام تفرقة حاسمة بين الحب والشهوة ، فإننا نجده يرفض فكرة التعلق بشخصين فى وقت واحد ، مؤكدا « وحدانية الحب » . والواقع أن التعدد حليف الشهوة ، فى حين أن الوحدانية قرينة المحبة . ولهذا يقرر ابن حزم بصراحة أن كل من يزعم أنه يحب اثنين ، ويعشق شخصين متغايرين ، فقد اختلطت عليه المحبة بالشهوة ؛ والشهوة لا تسمى حبا على التحقيق ، بل على المجاز فقط . ولابن حزم فى ذلك أبيات جميلة يقول فيها :

كذب المدعى هوى اثنين حتما ... مثل ما فى الأصول أكذب مانى
ليس فى القلب موضع لحبيبين ... ولا أحدث الأمور بثانى
فكما العقل واحد ليس يدرى ... خالقا غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يهوى ... غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحد مستقيم ... وكفور من عنده دينان(٢)

وواضح من هذه الأبيات أن ابن حزم يؤمن بالوحدانية فى الحب ، كما يؤمن تماما بإله واحد ودين واحد . وهو لهذا يستنكر التقلب فى الحب ، ويستهجن الملل فى العاطفة ، ويحمل بشدة على القائلين بإمكان الجمع بين حب اثنين فى وقت واحد . وابن حزم يشير فى هذا الوضع إلى قصة رجل سريع التقلب كان يشترى الجارية وهى كارهة له ، فلا يلبث كرهها له أن يستحيل إلى حب مفرط وكلف زائد به ، بينما لا يشعر هو نحوها بأية عاطفة صادقة أو أى حب صحيح . وتعليل ابن حزم لهذا الشعور أن « الأعضاء

(١) ابن حزم « طوق الحمامة » ، ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦ — ٢٧ .

الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها » ، فلا بد من أن يستند الحب إلى دعامة من التوافق الجنسى أو الإشباع الغريزى ... ويروى لنا ابن حزم فى موضع آخر أن رجلا يدعى أبا عمر محمد بن عامر « كان يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فإذا أيقن بتصيرها إليه ، عادت المحبة نفارا ، وذلك الأنس شرودا ، والقلق إليها قلقا منها ، ونزوعه نحوها نزاعا عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان(١) » . والشخصية التى يصفها لنا هنا ابن حزم هى أشبه ما تكون بشخصية دون جوان (الذى كان يرى فى النساء أعداء له ، فلم يكن الحب فى نظره سوى معركة ، ولم يكن يتحدث عندئذ إلا عن انتصاراته أو مكاسبه !) . وابن حزم يعلل هذا التقلب فى الحب بالملل ، فيقول إن الملول لا يثبت على حب النساء ، ولا يعرف الاستقرار حتى فى مودته مع الأصدقاء ! ولهذا نراه يقرر فى موضع آخر « أن من كان سلوه عن ملل ، فليس حبه حقيقة ، والمتسم به صاحب دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ومبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناس مذموم(٢) » وليس من شك فى أن من فهم الحب بمعنى التملك أو الحيازة ، فإنه سرعان ما ينصرف عن المرأة التى تملكها وأيقن أنها قد صارت إليه ، لكى لا يلبث أن يبحث عن فريسة جديدة يوجه إليها كل سهامه حتى يتمكن يوما من الظفر بها ! ومثل هذا النوع من الحب — فى رأى ابن حزم — إنما هو مبادرة إلى اللذة ، وسعى وراء إشباع الشهوة ، فهو أقرب إلى التنقل وحب الاستبدال ، منه إلى المحبة أو الاستقرار العاطفى .

ولكن ، لنفرض أن ظروف الإنسان قد اضطرته إلى تكرار تجربة الحب ، فما القول فى حبه الثانى ؟ وهل يفيد المرء من خبراته التى اكتسبها فى حبه الأول ، فلا يكرر فى حبه أخطاءه السابقة ، ولا يقع فى نفس المهاوى التى تردى فيها آنفا ؟ يبدو لنا أن ابن حزم أميل إلى القول بأن لكل فرد منا أسلوبا خاصا فى سلوكه ، أو نمطا شخصيا فى أخلاقه وتصرفاته ، فهو لا يملك عنه محيدا ، ولا يكاد يقوى على تغييره ، حتى إنه ليحب مرة بعد أخرى ، فلا يكاد حبه فى كل مرة يختلف عما مر به فيما سلف من تجارب

---

(١) المرجع السابق : من ٧٣ — ٧٤ (وانظر أيضا عرض الأستاذ يوسف الشارونى لهذا الكتاب فى مجلة « المجلة » ، العدد ١٠٢ — يونية سنة ١٩٦٥ ، ص ٧٦ — ٨٥) .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

عاطفية .. وابن حزم يحدثنا عن هذه الظاهرة فى فصل من كتابه سماه باسم « باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخلفها » ، فيكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم « التثبيت » (وهو عبارة عن ارتباط المرء فى صباه بشخص أو شيء ارتباطا وثيقا ، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى)[١] . ومما يقوله ابن حزم فى هذا الباب قوله : « .. وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر ، فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية فى فمها فوه لطيف ، فلقد كان يتقذذ كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة ... وعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو (كانت) على صورة الحسن نفسه . وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تؤاتينى نفسى على سواه ، ولا تحب غيره ألبتة »[٢] .

والواقع أن ابن حزم حين يتحدث عن الحب ، فإنه لا يتحدث عن فعل يملك المرء أسباب تصريفه ، بل هو يتحدث عن « داء عياء » لا مدخل للإرادة فيه ، وإن كان الحب بطبيعته « علة مشتهاة لا يود سليمها البرء[٣] » . وهو لا يكتفى بنفى « الاختيار » عن المحب ، بل هو يقرر أيضا أنه ليس ثمة آفة أعظم من الحب[٤] ! وإن ابن حزم ليسهب فى وصف سلطان الحب على نفوس العاشقين ، فيقول : « اعلم أعزك الله أن للحب حكما على النفوس ماضيا ، وسلطانا قاضيا ، وأمرا لا يخالف ، وحدا لا يعصى ، وملكا لا يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد ... (وهو) يحل المبرم ، ويحلل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغاف ، ويحل الممنوع ... إلخ[٥] » وربما كان أعجب ما فى الحب أنه يعمى ويصم ، فهو قد يصيب شخصا عاقلا رزينا حسن التمييز ، فإذا به يخطئ الحدس ، ويستحسن القبيح ، وينحرف عن جادة الصواب ، حتى ليكاد

---

(١) Cf. A. B. English : " **A. Student's Dictionarv of Psycholgical Terms**", Harper, New-York, 1934, Art. " **Fixation**" p. 52.

(٢) « طوق الحمامة » : ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤٦ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٧ — ٢٨ .

الهوى يصبح له بمثابة طبع ثان ، فلا يعود يقبل إلا على الردىء والفاسد والمعوج ! ومعنى هذا أن آفة الحب قد تميل بالشخص إلى تفضيل الأدنى ، أو هى قد تصرفه عن رؤية الأشخاص والأشياء بعين الحقيقة ، فإذا بالعاشق المؤوَّف (أى المصاب بآفة الحب) يستحيل إلى مخلوق ناقص قد غلب عليه هوى عارض « فذهب طبعه الأول ، وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا[١] » . وقد لا نبالغ إذا قلنا إن ابن حزم هنا يصور لنا الحب بصورة المرض الذى يشل الإرادة ، أو الداء الذى يعمى البصيرة ، وكأن أهل الحب عبيد مغلوبون على أمرهم ، أو ضحايا بريئة لسلطان الهوى الغاشم المستبد !

على أن ابن حزم يشير — فى موضع آخر — إلى أن للحب خمسة أدوار أو خمس درجات ، فهو يبدأ عادة بالاستحسان ، والاستحسان أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه فيستحسنها ، أو يستحسن أخلاقه ، وهذه الدرجة أدخل فى باب التصادق منها فى باب المحبة ، ثم يجىء بعد ذلك الإعجاب ، فيرغب الناظر فى المنظور إليه ، ويحن إلى القرب منه . وتلى ذلك مرحلة الألفة ، وهى الوحشة إلى المحبوب إذا غاب ؛ ثم الكلف : وهى غلبة شغل البال به ، أو هو ما يسمى فى الغزل باسم « العشق » . وأما المرحلة الأخيرة فهى الشغف : وهو امتناع النوع والأكل والشرب ، إلا اليسير من ذلك ، وربما أدى الشغف إلى المرض ، أو إلى التوسوس ، أو إلى الموت[٢] . وابن حزم يحدثنا بالتفصيل عن نشأة الحب ، فيعقد فصلا يسميه باسم : « باب التعريض بالقول » يحدثنا فيه عن أساليب المحبين المختلفة فى الإعراب عن حبهم ، ثم يتبعه بفصل آخر يسميه باسم « باب الإشارة بالعين » يحدثنا فيه عن لغة العيون وإشارات الألحاظ ! ومما ورد على لسانه فى هذا الباب قوله : « واعلم أن العين تنوب عن الرسل ، ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملا . وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق ، وتميز الصفات ، وتفهم المحسوسات . وقد قيل ليس المخبر كالمعاين[٣] » . ثم يعرض ابن حزم بعد ذلك لدراسة أساليب المحبين فى التراسل

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٩ .

(٢) ابن حزم : « رسالة الأخلاق » ، سلسلة الثقافة الإسلامية ، مارس سنة ١٩٦٢ ، القاهرة ، ص ٤٧ .

(٣) « طوق الحمامة » ، ص ٣٢ (باب الإشارة بالعين) .

والتواصل ، فيحدثنا عن رسائل العشاق وأشكالها ، وخصائصها ، وأعاجيبها ، ثم يشير إلى رسل المحبين أو سفرائهم ، فيسهب فى الحديث عن صفاتهم ، وأنواعهم ، ومهمتهم .. إلخ .

وينتقل ابن حزم بعد ذلك إلى الحديث عن أعراض الحب وصفات المحبين ، فيعقد فصلا تحت عنوان « باب طى السر » ، ينص فيه على أن من بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب إن سئل ، والتصنع بإظهار الصبر ... إلخ . ولكن المحب لا يقوى طويلا على كتمان سره ، فإن حركاته ونظراته سرعان ما تفضح حبه ، وتفصح عن مكنون وده ، فإذا بالناس جميعا يلحظون اضطرابه عند رؤيته لمحبوبه ، ويدركون من إشاراته وحركاته ما طوى عليه ضلوعه !. ومن أعراض الحب أيضا طاعة المحب لمحبوبه وانقياد طبعه لطباع محبوبه ، حتى إننا لنرى الرجل « شرس الخلق ، صعب الشكيمة جموح القيادة ، ماضى العزيمة ، حمى الأنف ، أبى الخسف ، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ، ويتورط غمره ، ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليانا ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلالة ، والحمية استسلاما ... »(١) . وقد يقع فى ظن البعض أن تذلل المحب لمحبوبه أو صبره على دلاله إنما هو دناءة فى النفس ، ولكن ابن حزم لا يرى فى ذلك أية غضاضة ، خصوصا وأن المحبوب — فى نظره — ليس كفوا للمحب ولا نظير له ، فليس فى التذلل له أو الصبر عليه أدنى مذلة أو إهانة ! وابن حزم هنا يروى لنا الكثير من أخبار المحبين الذين انقادوا وراء محبوبيهم ، دون أن يفكر الواحد منهم فى مصلحته الخاصة ، بل دون أن يحرص على سمعته أو يفكر فى لذته . « ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه أنى أعرف من كان سهر الليالى الكثيرة ولقى الجهد الجاهد ، فقطعت ضروب الوجد ، ثم ظفر بمن يحب ، وليس به امتناع ، ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه ، تركه وانصرف عنه ، لا تعففا ولا تخوفا ، ولكن توقفا عند موافقة رضاه ...(٢) » . وأما إذا تعمد المحب مخالفة محبوبه ، واقتصر على بلوغ مرغوبه ، دون الاهتمام بإرضاء محبوبه ، فإنه عندئذ إنما يجعل من الحب مجرد أداة لإشباع أهوائه ، وكأن حبه مجرد متعة شخصية أو عاطفة أنانية ! (وهذا — مع الأسف — هو

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٦ (باب الطاعة) .

(٢) « طوق الحمامة » ، ص ٤٥ .

ما استحال إليه الحب لدى الكثير من المحبين) !

وأما آفات الحب — فى رأى ابن حزم — فهى عديدة : لأن منها العاذل ، والرقيب ، والواشى ؛ وهؤلاء جميعا يعملون على تكدير صفو العلاقة القائمة بين المحب ومحبوبه ، إما بتشديد الملامة عليهما ، أو إفساد جو الوحدة الذى يحرصان عليه ، أو بالإيقاع بينهما عن طريق النميمة والوشاية . والواقع أنه إذا كان من عادة المحبين أن يلتمسوا الوحدة ، وينشدوا الخلوة ، فذلك لأنهم يريدون أن ينأوا بأنفسهم عن أعين الغرباء ، وكأنما هم يشعرون بأنه ظهور « العذول » أو « الرقيب » أو « الواشى » هو الكفيل بالقضاء على الحب ! وابن حزم يسهب فى الحديث عن هذه الآفات ، لكى ينبه العشاق إلى الأخطاء التى تتهدد حبهم ، وكأنما هو يشفق عليهم أن تتحطم أعز أحلامهم بسبب عذول أو رقيب أو نمام ! فإذا نجح المحبوب فى القضاء على أسباب الكدر ومبررات الاغتمام ، تحققت له أسمى مرتبة من مراتب الحب ، ألا وهى مرتبة الوصل . « ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى »(١) ! وهنا يعطى ابن حزم الفيلسوف الكلمة لابن حزم الشاعر ، فنرى أديبنا العربى الكبير يكتب عن الوصل كلمات رقيقة تنبع من صميم خبرته ، فيقول : « .. لقد جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنو من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروح على المال ، من الموقع فى النفس ما للوصل ؛ لا سيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ، ويتوقد لهيب الشوق ، وتنصرم نار الرجاء .. إلخ »(٢) ولا شك أن ابن حزم حين يخلع على « الوصل » كل هذه الأهمية ، فإنه إنما يعبر عن إيمانه العميق بقيمة تلك « التجربة الميتافيزيقية » التى يحققها الحب حين يخرج بالذات من قوقعتها المظلمة ، لكى يقذف بها إلى عالم « الآخر » ، أو بالأحرى إلى عالم « الأنت » (إن صح هذا التعبير) ! وابن حزم هنا يناصر « فلسفة الاتصال » ، ويشدد النكير على القائلين بالانفصال ، لأنه يشعر بأن

---

(١) « طوق الحمامة » (باب الوصل) ، ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٠ .

الناس قد خلقوا للتجاذب والتواصل ، لا للتنافر والتباعد . ولهذا نراه يقول : « إن من الناس من يقول إن دوام الوصل يودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا »(١) . صحيح أن الأضداد أنداد (أو كما يقال عادة : الأضداد فى تماس) ، وصحيح أيضا أن الأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادها ، ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها تشابهت (على حد تعبير ابن حزم نفسه) ، ولكن دوام الوصل مع ذلك لا يؤدى إلى الرغبة فى الهجر ! وإن ابن حزم ليعود مرة أخرى إلى تجربته الخاصة ، فيخبرنا أنه ما ارتوى قط من ماء الوصل ، بل كلما زاد ارتواؤه ، زاد ظمؤه ! « ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتنى إلا مستزيدا ، ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ... ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب ، فلم أجل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت ولوعا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى .. »(٢) .

وكما حدثنا ابن حزم عن نعمة الوصل ، نجده يحدثنا أيضا عن آية الهجر ، فهناك هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر يوجبه التذلل ، وهجر يمتحن به المحبوب صبر محبه ، وهجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب « وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة لا تعدلها لذة ، وموقفا من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا ... »(٣) وأما أقسى ضروب الهجر فهى الهجر الذى يوجبه الوشاة ، ثم هجر الملل ، وأخيرا هجر القلى ، وهو الذى تنفد فيه الحيل ويعظم معه البلاء ! وإذا كان الغدر من آفات الحب فإن الوفاء هو الفضيلة الكبرى فى الحب . وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وتليها مرتبة ثانية هى الوفاء لمن غدر ، وهى للمحب دون المحبوب ، ثم مرتبة ثالثة وهى الوفاء مع اليأس البات ، وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون . ولما كان ابن حزم قد فرق فى الحب بين

---

(١) المرجع السابق (باب الوصل) ، ص ٦٢ .

(٢) « طوق الحمامة » : ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق : باب الهجر : ص ٦٧ — ٧٠ ، (وانظر أيضا مقال الأستاذ يوسف الشارونى المشار إليه بمجلة « المجلة » ، يونية سنة ١٩٦٥ ، ص ٨٤) .

المحب والمحبوب ، فإننا نجده يجعل الوفاء ألزم على المحب منه على المحبوب ، بحجة « أن المحب هو البادى باللصوق ، لعقد الأذمة ، والقاصد لتأكيد المودة ، والمستدعى صحة العشرة ... (فى حين أن) المحبوب إنما هو مجلوب إليه ، ومقصود نحوه ، ومخير فى القبول أو الترك فإن قبل فغايه الرجاء ، وأن أبى فغير مستحق للذم ...[١] . وابن حزم يحدثنا فى هذا الصدد عن نفسه فيقول إنه ليس أثقل على نفسه من الغدر ، وليس أحب إلى قلبه من الوفاء ؛ وهو يحمد الله على ما منحه من قدرة على الوفاء ، والمحافظة على العهد ، والعرفان بالجميل ... إلخ .

ثم ينتقل ابن حزم إلى الحديث عن البين ، فيقول : إن سنة الحياة أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء ؛ وقد قال أحد الحكماء : إن الفراق أخو الموت ، فقيل له : « بل الموت أخو الفراق » ! والبين على أنواع : فهناك بين لمدة محدودة من الزمن ، وبين هو بمثابة منع من اللقاء ، أو حظر على المحبوب من أن يراه المحب ، وبين يتعمده المحب تجنبًا لأقوال الوشاة ، ثم بين الموت ، وهو الفوت أو الهول الأكبر ، لأنه غياب لا يرجى منه إياب .. « وقد اختلف الناس فى أى الأمرين أشد : البين أم الهجر ؟ وكلاهما مرتقى صعب ، وموت أحمر ، وبلية سوداء ، وسنة شهباء ، وكل يستبشع من هذين ما ضاد طبعه . فأما ذو النفس الأبية ، الألوف الحنانة ، الثابتة على العهد ، فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين ، لأنه أتى قصدا ، تعمدته النوائب عمدا .. وأما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه وجالب حتفه ، والبين له مسلاة ومنساة . وأما أنا فالموت عندى أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد ، ويوشك إن دام أن يحدث أضرارا[٢] . ثم يحدثنا ابن حزم عن القنوع ، فيقول إن المحب إذا حرم الوصل ، وجد نفسه مضطرا إلى القنوع بما يذكره بالمحبوب ، سواء أكان ذلك بتقبيل بعض آثاره ، أو بالاحتفاظ بأشياء كانت ملكا له ، أو بالاستسلام للخيال والرضا بمزار الطيف ... إلخ . ومن العشاق من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه ، والأرض تقلهما ، ومنهم من قنع باستوائهما فى إحاطة الليل والنهار بهما ؛ وأما ابن حزم فإنه « قانع بالاجتماع مع من يحب فى علم الله ![٣] » .

---

(١) المرجع السابق : ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ١ .

ثم يحدثنا ابن حزم فى « باب الضنى » عن الأمراض النفسية والجسمية التى قد تترتب على قمع الحب أو كتمانه ، فيقول إن « الأعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد[١] » وهو يروى لنا فى هذا الصدد بعض حالات الحب التى سمع عنها ، مما أدى بصاحبه إلى الخبل أو الجنون (أى المرض العقلى) . ولما كان الحب فى نظر ابن حزم ظاهرة بشرية تخضع لما تخضع له سائر الظواهر البشرية الأخرى ، فليس بدعا أن نراه يختم حديثه عن الحب بالتعرض لباب السلو ، وباب الموت ، اعتقادا منه بأن « كل ما له أول فلا بد له من آخر » . ومن أسباب السلو ثلاثة أصلها من المحب ، ألا وهى الملل ، والاستبدال ، والحياء . وأربعة أصلها من المحبوب ، ألا وهى الهجر ، والمفارقة ، والجفاء ، والغدر .. وقد يكون السلو خارجا تماما عن إرادة الإنسان : إما لموت ، وإما لبعد لا يرجى بعده عود ، وإما لعلة مزمنة طرأت على المحب ، وهذه جميعا تدخل تحت باب « اليأس » . وأخيرا يحدثنا ابن حزم عن الموت فيقول إنه « ربما تزايد الأمر ورق الطبع وعظم الإشفاق ، فكان سببا للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء فى الآثار : من عشق فعف فهو شهيد[٢] » . وقد تشتد غيرة المرأة على الرجل الذى تحبه ، حتى لتجد فى موته عزاء لها عن خوفها من خيانته ، كتلك التى كانت تقول بعد وفاة زوجها : « ما يقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به[٣] » .! ولا يتسع المقام للإفاضة فى شرح رأى ابن حزم فى العفاف ولكن حسبنا أن نقول إنه فى رأيه ممكن بشرط أن يحكم الإنسان عقله (وقائده العدل) فى نفسه (وقائدها الشهوة) . والرجال والنساء سواء فى المقدرة « على قمع الشهوة » — بعكس ما وقع فى ظن الكثيرين — فقد وجدت صالحات من النساء كما وجد صالحون من الرجال . والمهم فى التعفف هو ضبط الإرادة ، وحسن توجيه الانتباه ، فقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك ! وابن حزم يذكرنا بأن بنية الإنسان مدخولة ضعيفة ، فلا بد من تجنب أسباب الخطر ، والتحامى بالذات عن مواطن

---

(١) « طوق الحمامة » ، ص ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١٧ .

الغواية ، إذا أريد ضبط النفس وامتلاك زمام الذات . وكم أدى طول الاختلاط وكثرة التنافس على النساء إلى سفك دماء وإزهاق أرواح ! وكم كانت الغيرة سببا فى تعادى المتواصلين ، وتباغضهم بعد المحبة ! وابن حزم يؤكد لنا هنا « أن المودة إذا استحالت إلى عداوة ، صارت أفظع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم[1] » .. ويختم ابن حزم حديثه عن الحب بالإشادة بالتعفف ، فيقول إن الرسول قد خص بمدحه ! « رجلا دعته امرأة ذات حسب وجمال ، فقال إنى أخاف الله » ، وليس عند الله معصية أقبح من الزنا .

ولا يسعنا فى ختام هذا العرض السريع لرسالة ابن حزم فى الحب سوى الإشادة بهذا التحليل النفسانى الدقيق لأسباب الحب وأعراضه وآفاته .. وذلك العرض الفلسفى العميق لصلات المحبين بالمحبوبين مع ما يكتنفها من علاقات متشابكة متعارضة متداخلة ... إلخ . وعلى الرغم من أن ابن حزم ليس أول من كتب فى الحب من أدباء العرب (فقد سبقه إلى ذلك إخوان الصفا فى بعض رسائلهم ، وابن المقفع فى « الأدب الكبير والأدب الصغير » ، والجاحظ فى الرسالة السابعة — من مجموعة رسائله — فى العشق والنساء) ، إلا أن ابن حزم قد فاق كل هؤلاء فى دقة منهجه ، وتسلسل أفكاره ، وترابط بحثه ، ورقة حسه ، وبعد غوصه . وقد اتبع ابن حزم فى دراسته للحب منهجى الاستبطان والاستقراء ، فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة ، والخبرات الحية المعاشة ، والأمثلة التاريخية الصادقة ، والنماذج البشرية المتنوعة ؛ وهذا ما جعل منها دراسة فذة فى تاريخ الأدب العربى ...

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣٤ .